

مقدمة

تكمّن أهمية هذا البحث في أنه يعالج بالدراسة والتحليل فترة زمنية من أهم فترات التاريخ المصري الحديث في أفريقيا في القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد في الفترة ما بين ١٨٢٠ ، ١٨٩٩ ، فدراسة هذه الفترة بالذات تلقي الضوء على الجوانب الحضارية الهامة التي قامت بها مصر في أفريقيا في خلال القرن التاسع عشر ، سواء كان ذلك في النواحي الاقتصادية أو الاجتماعية أو العمرانية أو في مجال الكشوف الجغرافية أو في غيرها من النواحي الأخرى ، زيادة على ذلك فإن دراسنها تبرز لنا دور مصر الإيجابي في أفريقيا في هذه الحقبة من الزمن فمن الواضح أن دورها لم يكن دورا استعماريًا كما يزعم البعض ، بل كان دورا حضاريا إلى درجة كبيرة .

وقد زاد من أهمية هذه الدراسة توافر مصادرها الأساسية ، كالموثائق والمخطوطات والتقارير والسجلات وكذلك توافر مصادرها غير الأساسية ، التي تتمثل في المراجع العربية والأجنبية والدوريات .

ولكن على الرغم من أهمية هذه الفترة ، وعلى الرغم من توافر مصادرها إلا أن الباحثين والمتخصصين لم يتناولوها ، بالبحث والدراسة الكافية ، ويرجع ذلك إما لاعتقادهم في عدم توفر المادة اللازمة لدراسة هذا الموضوع أو لاعتقادهم في صعوبة دراسة هذه الفترة التاريخية الهامة وذلك لطول مدتها الزمنية ، ولكن عندما راودتني فكرة هذا الموضوع أقدمت عليه ولم أتردد في تناوله بالدراسة ، اعتقادا أن دراسته ، ربما تزود المكتبة العربية بإضافة علمية جديدة ، أو ربما تمكنني من إبراز دور مصر الإيجابي في أفريقيا ، حتى يفحصها العالم بما تستحقته من تقدير .

لقد واجهت بعض المصاعب أثناء جمع مادة هذا البحث ، وخاصة ما واجهته منها في دار الوثائق التاريخية ، فكثير من الوثائق هناك ، غير منظم ولا مرتب ، بل والبعض منها مبتور أيضا .

الى جانب هذا فقد واجهت مشكلة النقص في بعض المراجع الهامة التي لا يتوفر منها الا العدد اليسير ، ولو تصادف ووجد البعض منها في إحدى المكتبات العامة فاما أن يكون معارا للباحثين والأساتذة ، وأما أن يكون موجودا ولكن غير مسهوح بأعارته لكونه من الكتب النادرة ، وترجع ندرته الى انه طبع في القرن الماضي .

وبعد أن انتهيت من جمع مادة هذا البحث قيمت بتصنيفه وفق المنهج العلمي ، مراعيًا في ذلك التسلسل التاريخي للأحداث ووحدة الموضوع حتى يتيسر لى كتابته . هذا عن أهمية الدراسة والصعوبات التي واجهتني خلال فترة البحث .

وأما عن التحديد الجغرافي لموضوع البحث ، فهو يهتم على وجه التحديد بدراسة بعض المناطق الإفريقية بصفة عامة والسودان بصفة خاصة .

فبالنسبة لأفريقيا فأنها تختلف عن غيرها من القارات من حيث ظروفها الطبيعية والمناخية ، وكذلك من حيث موقعها الجغرافي ، فهي تقع بين خطي عرض ٣٧° شمال خط الاستواء ، وبين خط عرض ٣٥° جنوب خط الاستواء ، ويمر من خلالهما أيضا خطوط العرض الرئيسية الممثلة في مدار السرطان ومدار الجدي وخط الاستواء ، وقد كان لمرور هذه الخطوط العرضية الرئيسية اثره المباشر على جغرافية أفريقية من حيث تباين مناخها .

وقد أدى هذا التباين في المناخ الى التنوع في كثرة غلاتها الزراعية ، وقد ضاعف من هذه الغلات اتساع مساحة أفريقيا التي تبلغ حوالي ١١٧٠٠٠٠٠٠٠ (احد عشر مليونا وسبعمائة الف من الأميال المربعة) ، فهي تعتبر بذلك ثاني قارات العالم من حيث المساحة بعد قارة آسيا ، كما انها محاطة بحدود طبيعية تفصلها عن باقي القارات ، فيحدها من الشرق البحر الأحمر والمحيط الهندي ، ويحدها من الغرب المحيط الأطلسي الذي يفصلها عن الأمريكتين ، ويحدها من الشمال البحر المتوسط ، ويحدها من الجنوب نقطة التقاء المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي . وقد وهبها الله عددا من الأنهار ، منها نهر النيل والكنغو والنيجر والسنگال والزمبزي والأورانج ، وغيرها من الأنهار الصغيرة والأخوار ، ولقد ساعدت كثرة الأمطار التي تهطل على المنطقة الاستوائية، لهذه القارة على وجود مساحات شاسعة من الغابات

الاستوائية ، التي تكثر بصفة خاصة في غرب القارة الإفريقية ، وحوض الكونغو ، وفي منطقة خط الاستواء ، أما فيما عدا ذلك فيقل وجود الغابات تدريجياً نظراً لقلة الأمطار ، وتحل محلها حشائش السافانا التي يندر وجودها بالتالي ، كلما اقتربنا من الصحراء الكبرى الواقعة الى الشمال من خط الاستواء ، والتي تشغل جزءاً كبيراً من مساحة القارة الإفريقية . وإلى جانب نمو الغابات في أفريقيا ، تنمو بها أيضاً أشجار المطاط والكافور وتخيل الزيت والبن والموز ، وينمو بها أيضاً نباتات القصب والقطن والسمسم والذرة العويجة والذخن والفول السوداني (١) . وزيادة على ذلك فإن هذه القارة غنية بثروتها الحيوانية المثلثة في الأبقار والجاموس والأبل والغنم والماعز هذا ، الى جانب وفرة الحيوانات البرية الأخرى العديدة الأنواع ، التي تمثل في الوقت الحاضر أهم المقومات السياحية التي تجذب الكثير من سياح العالم لزيارة بعض المناطق الأفريقية . ولكن على الرغم من وجود هذه الثروات الضخمة في أفريقيا ، إلا أن حكايها لم يستغلوا لصالح شعوبهم ، ويرجع السبب في ذلك الى انتشار الجهل والتخلف والعزلة ، التي حالت دون اتصال أفريقيا بالعالم الخارجي ، بالإضافة الى قلة رؤوس الأموال وعدم توفر الخبرة الفنية ، والأيدى العاملة المدربة .

وتتمثل عوامل عزلة أفريقيا في كثرة الغابات الاستوائية والحرارة الشديدة والأمطار الغزيرة ، والحيوانات المفترسة والأمراض الفتاكة والصحراء الشاسعة ، بالإضافة الى عدم صلاحية سواحلها الغربية لرسو سفن الرحالة والمغامرين ، وذلك راجع الى التكوين الطبيعي للساحل الغربي لأفريقيا والذي يتميز بعدم تعاريفه ، فبينما يرتفع هذا الشاطئ في مكان ، نجده ينخفض في مكان آخر ، بحيث تغمره المياه والأمواج ، زيادة على شدة حركة المد والجزر ، بالإضافة الى ذلك فإن هذا الساحل يحوى كثيراً من الالسنة الرملية والطينية التي توجد بصفة خاصة في مصبات الأنهار ، وقد

(١) نبيلة عبد الهادي ، وفؤاد مصطفى محمود : الانتاج الإفريقي والتجارة الخارجية . ص . ٣ - ٤ .

اتخذ تجار الرقيق من الشاطئء الغربى لافريقيا نقط وثوب لصيد الرقيق .
الأسود (٢) .

لم تكن سواحل افريقيا كلها غير صالحة لرسو السفن مثل الساحل الغربى . بل نجد ان بقية سواحلها كانت صالحة لرسو السفن ، ليس فقط فى القرن الماضى فحسب ، بل من قبل ذلك بكثير ، والدليل على ذلك ما اشتهرت به الموانى الشمالية والشرقية لافريقيا ، وقد زادت اهمية هذه الموانى بعد فتح قناة السويس للملاحة العالمية اى منذ عام ١٨٦٩ ، التى كان لفتحها اثره الفعال فى المساهمة فى تشجيع حركة التجارة العالمية ، بين اوروبا من ناحية ، وافريقيا وآسيا من ناحية اخرى . (٣)

لم تكن هذه التجارة قاصرة على الفلات الزراعية والمعادن فحسب ، بل شملت ايضا تجارة الرقيق الأسود التى انتشرت فى اجزاء كثيرة من افريقيا ، خاصة بعد ان خفت حدة الحرب بين الدول ، فقد كانت هذه الحروب بمثابة مصدر من مصادر تجارة الرقيق فى العالم ، ولكن بمجرد الانتهاء من هذه الحروب ، بدأ النخاسة فى البحث عن مصدر آخر ، يحصلون منه على الرقيق ، فلم يجدوا امامهم الا افريقيا ، فذهبوا اليها بحجة الاتجار فى العاج وريش النعام ، وهناك عملوا ايضا فى الاتجار بالرقيق الاسود بل وعلى اوسع نطاق ، مستخدمين فى ذلك ايشع الطرق غير الانسانية فى اصطيادهم . (٤) هذا عن افريقيا .

وأما عن السودان ، فهو الامتداد الطبيعى لمصر حيث كانت له علاقات قديمة معها تركز على دعائم توية ، تتمثل فى وحدة الأرض والعرف والدين واللغة والملحة والمصر المشترك (٥) لذلك نجد ان السودان كان يتأثر بما تتأثر به مصر من تيارات سياسية أو ثقافية أو اجتماعية ، فعند ما دخلت المسيحية ومن بعدها الإسلام الى مصر ، دخلا بالتالى الى السودان .

Harrison Church, R.G. : West Africa. pp. 10-12. (٢)

Asfour, M.M. Dr. : The ports of Redsea. p. 221. (٣)

(٤) دكتور / فيليب رغلة : الجغرافيا السياسية لافريقيا ص د .

(٥) د / محمد محمود الصياد ، ومحمد عبد الغنى سمعدى :

السودان ، ص ٥ .

يتميز السودان بكثرة اراضيه الخصبة وبتساع مساحته التي تبلغ نحو
مايون ميل مربع ، فضلا عن ذلك فانه يتميز بمرور النيل وروافده المختلفة من
خلاله والتي تعمل مجتمعة على خلق بيئة زراعية جيدة (١) .

ولكن على الرغم من كثرة الثروات الاقتصادية في السودان خاصة
وافريقيا عامة ، الا ان هذه الثروات ظلت دون استغلال من جانب الافارقة
لمصالح شعوبهم ، الذين كانوا يعيشون في ظلام الجهل والتخاف .

وفي اثناء القرن التاسع عشر كانت اوربا تعيش في ظل ظروف حضارية
متقدمة هي الظروف التي خلقت رغبة لدى الاوربيين في الحصول على المواد
الخام اللازمة لمصانمهم كي تواصل استمرارها في العمل ، كما رغب الاوربيون
ايضا في فتح اسواق جديدة في افريقيا لتصريف منتجاتهم الصناعية بكافة
انواعها .

ونظرا لهذه الاهمية الاقتصادية ، شجعت اوربا بعض الرحالة والمغامرين
على الذهاب الى افريقيا ، كي يقوموا بكشف بعض المناطق هناك للوقوف
على ما تحويه هذه المناطق من مواد خام ، وكان البعض من هؤلاء الرحالة
ينجح في مهمته ، والبعض الآخر كان يصادفه الفشل ، وكانت المخاطر —
تصادفهم اثناء الرحلة ، ولم تكن الحماية في بعض البلاد الافريقية في ذلك
الوقت مكفولة ، لمثل هؤلاء المغامرين وخاصة قبل دخول مصر الى اواسط
افريقيا .

كان من هؤلاء الرحالة والمغامرين الطبيب الفرنسي جاك فرنسوا بونسيه
Poncet الذي زار الحبشة وسنار في الفترة ما بين عامي ١٦٩٨ م
١٧٠٠ ، والرحالة البافاري كرمب Krump الذي زار سنار في الفترة
ما بين ١٧٠١ — ١٧٠٢ ، ومن بعده زار سنار نائب القنصل الفرنسي بدمياط
والمسمى لونيواردي رول Le noir du Roule ولكنه قتل عام ١٧٠٥ بمعرفة
سلطان سنار ، وبعد ذلك جاء الى افريقيا الرحالة جيمس بروس Bruce

(٦) د / جمال الدين الدناصوري : مشروعات التوسع الزراعي في
السودان : ص ١٥٩ .

الاسكتلندي ، ووليم جيمس براون Browne الانجليزي الجنسية ،
والشيخ محمد بن عمر التونسي ، وجون لويس بركار Burckar السويسري
الجنسية .

لقد نشر هؤلاء الرحالة والمكتشفون كل مشاهداتهم عن البلدان التي
زاروها مثل الحبشة والسودان ، موضحين في تقاريرهم جميع أحوالها السياسية
والاجتماعية والاقتصادية (٧) .

كان من نتائج أعمال هؤلاء الرحالة والمغامرين الذين ذهبوا الى أفريقيا
تشجيع (محمد علي) على دخول افريقيا ، هو الأمر الذي بدأ بالفعل منذ
عام ١٨٢٠ ، مستندا في ذلك الى عدة دوافع نجلها على النحو التالي : —

— تدهور الأوضاع في السودان ، فقد انتشرت الفوضى والاضطرابات —
السياسية ، وتدهورت الأحوال الزراعية والتجارية مما ادى بأهل السودان
الى أن يطلبوا من مصر التدخل ، لكي تقضى على هذه الفوضى المنتشرة في
بلادهم ، وتستبدل هذه الأوضاع بالامن والنظام والرخاء الاقتصادي (٨) .

— استتباب الأمن في مصر ، وذلك بعد هزيمة الحملة الانجليزية ،
والتخلص من المماليك نهائيا في مذبحة القلعة منذ عام ١٨١١ م ، بالإضافة الى
الانتهاء من الحروب الوهابية التي بدأت في الفترة ما بين عام ١٨١١ م وحتى
عام ١٨١٩ (٩) .

— اقوال رجال القوافل التجارية الذين كانوا يحضرون من السودان الى
اسوان ، فقد أكد هؤلاء الرجال ل محمد علي ، صحة مقالته الرحالة والمغامرون
في تقاريرهم ، بل وأوضحوا له ايضا الصورة الكاملة عن أحوال هذه البلاد
من حيث خصوبة التربة في السودان ، وبصفة خاصة في إقليم سنار ، وأوضحوا

(٧) د / محمد فؤاد شكرى : الحكم المصري في السودان ص ١٠٩ -

(٨) د/محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل

السياسية في القرن ١٩ ص ٧ - ٨ .

(٩) عبد الرحمن الرامعي : عصر محمد علي ، ص ١٢٣ .

له أيضا ما تتميز به هذه البلاد من وفرة في حاصلاتها الزراعية والمعدنية ،
والتي يرجح وجودها بوفرة في جبال كردفان وفي سنار وفازوغلى .

— ضعف دولة الفونج ، التي كان لها نفوذ كبير في الماضي على جميع
ممتلكاتها ، ولكن هذا النفوذ بدأ يتضاؤل مع بداية القرن التاسع عشر ،
وبدا الصراع يدب بين حكامها على السلطة ، فبعد أن ضعف نفوذ ملك
دولة الفونج وتضاؤل سلطانه ، تنافس على السلطة وزيران هما الوزير
عدلان ، ومنافسه الوزير حسن رجب ، وقد أدى هذا النزاع فيما بينهما
الى سفك الدماء وتفتاقم الأمور ، التي كان من نتائجها فقدان دولة الفونج (**)
لنفوذها على ملحقاتها من جهة الشمال ، في كل من دنقلة واندامر وشندي ،
ومن جهة الشرق في كل من مواطن قبائل الهدنوة والحلائقة وبنى عامر (١٠)
ولم يبقى لها من السيطرة على المشيخات والدويلات الباتية تحت نفوذها
الا السلطة الاسمية (١١) ولكي يتأكد محمد على من صحة المعلومات الخاصة
بضعف دولة الفونج ارسل من طرفه مندوبا الى سنار ، عاصمة هذه الدولة،
كى يقدم بعض الهدايا الى ملكها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كى
يقوم بالتجسس على احوال هذه المملكة من حيث القوة والضعف (١٢) .

** أسست دولة الفونج الاسلامية في سنار في اوائل القرن السادس
الميلادى ، على يد ملكها « عمارة د ونقس » وقد بسطت هذه الدولة سيطرتها
على النيل الأزرق ، مدة من الزمن تبلغ نحو ثلاثة قرون ، وامت حدودها
نحو الشمال حتى الجندل الثالث ، ووصل سلطانهما في الجنوب حتى فازوغلى،
وخضعت لها الاتياليب الشرقية حتى البحر الأحمر ، ومن ناحية الغرب وصلت
حدودها الى حدود دارفور الشرقية .

انظر كتاب الدكتور محمد فؤاد شكرى ، الحكم المصرى في السودان ص ١١
(١٠) د/محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى في السودان ، المصر
السابق صص ٩ - ١٠ ، ١٥ - ١٦ .
(١١) د/صلاح الدين الشامى : بورسودان ، ميناء السودان الحديث .
ص ١٢٨ .

(١٢) د/مكى شببكة : السودان عبر القرون ، ص ٨٤ .

— رغبة محمد على في القضاء على المماليك الذين فروا من مصر في أعقاب مذبحه القلعة عام ١٨١١م الى صعيد مصر ، ومنه اتجهوا صوب الجنوب الى دنقلة ، وهناك أسسوا دولة صغيرة لهم ، وكونوا أيضا جيشا من السود وسلحوه بالأسلحة التي أخذوها معهم من مصر ، أملا في استعادة سلطانهم عليها (١٣) وكان هؤلاء المماليك عندما استقروا في دنقلة استغلوا سكانها أبشع استغلال (١٤) وذلك لأن المماليك تعودوا حياة الفرف التي كانوا يعيشونها في مصر ، والتي كانت قائمة على جمع الضرائب الباهظة ، وعلى أسلوب السلب والنهب لشعوبهم ، فيبدو أنهم مارسوا هذا الأسلوب مع سكان دنقلة الفقراء ، مما جعلهم يضيقون ذرعا بأسلوب المماليك ، وكان محمد على في نفس الوقت يتابع تحركات المماليك الذين يحاولون تهديد أمن بلاده من جهة الجنوب ، فقرر مطاردتهم والقضاء عليهم (١٥) .

— الرغبة في السيطرة على البحر الأحمر ، لأنه طريق الحجاج الى الأراضي المقدسة، وطريق التجارة العالمية التي تستأثر بها شركة الهند الشرقية، وكان محمد على قد أرسل حملة عسكرية الى الجزيرة العربية عام ١٨١١م بقيادة ابنه أحمد طوسون ، للقضاء على الوهابيين الذين استمرت الحرب معهم حتى عام ١٨١٩م وكان محمد على قد تمكن من بسط نفوذه على الساحل الشرقي للبحر الأحمر رجاء تدخله في السودان في العام التالي للانتهاء من الحرب الوهابية ، فبعث بحملة أخرى الى السودان ، كانت تحت قيادة ابنه اسماعيل (١٦) ويبدو أن السبب في إرسال هذه الحملة الى السودان كان لاحكام السيطرة المصرية على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، والتي لم تكتمل الا بعد أن حصل محمد على من السلطان العثماني على مينائي سواكن ومصوع ، فباستلانه على هذين المينائين تمكنت مصر من احكام سيطرتها على شواطئ البحر الأحمر الشرقية والغربية .

Holt, P.M. : A modern History of the Sudan. P. 35. (١٣)

(١٤) د/عبد الرحمن زكي : التاريخ الحربى لعصر محمد على . ص١٣٤ .

(١٥) عبد الرحمن الرامسى ، عصر محمد على ، المصدر السابق ص١٦٩ .

Hill, Richard : Egypt in the Sudan. P. 7. (١٦)

— وكانت هناك رغبة محمد على في تزويد جيشه بالأعداد اللازمة من السود ، وذلك لما يتميزون به من قوة البنية وحب الطاعة والنظام ، وكان ذلك أيضا بفرض تمويض جيشه عما فقده من جنود في الحروب التي خاضها ضد الممالك والوهابيين ، وسوف لا يقتصر عمل هؤلاء السود على الاتحاق بالجهادية فحسب ، بل سوف يمارسون أيضا كافة الأعمال الأخرى ، مثل الزراعة والصناعة والعمل المنزلي .

— وكانت هناك كذلك رغبة محمد على في التخلص من بقايا جيشه وخاصة من جنود الأرنؤود والدولة والألبانيين وغيرهم، وكانت هذه العناصر المختلفة التي يتكون منها جيشه ، تمثل عنصر الخطر الذي يهدد سلطانه فكثيرا ما كان هؤلاء الجنود يثرون القلاقل والفتن والاضطرابات بين السكان (١٧) . ولذلك قرر محمد على ضرورة التخلص منهم بإرسالهم الى السودان .

— هذا الى جانب عدم الرغبة في تجنيد الفلاحين المصريين لا لعدم كفاءتهم ومقدرتهم العسكرية ، ولكن لكي يتفرغوا لفلحة الأرض ، خاصة لأن الغلات الزراعية في ذلك الوقت كانت تمثل العنصر الاساسي للاقتصاد المصري (١٨) .

— وكانت هناك الرغبة في الحصول على المعادن التي سمع محمد على ، عن وجودها بوفرة في السودان ، وكان أكثر هذه المعادن حبا له هو معدن الذهب (١٩) حيث كلف فيما بعد قواته العسكرية بضرورة البحث والتنقيب عنه في كل مكان من بلاد السودان .

— وكان هناك امر الكشف عن منابع النيل التي ظلت مجهولة رغم المحاولات التي قام بها الرحالة والمغامرون ، وذلك لكشف الفموض عنها (٢٠)

(١٧) عبد الرحمن الراجحي ، المصدر السابق ص ٧٧ .

(١٨) د / مكي شبكية . المصدر السابق ص ٨٤ .

Mandour El-Mahdi : Ashort history of the Sudan P. 16. (١٩)

Ibid. P. 61.

(٢٠)

— وكان هناك كذلك الرغبة في تنمية وتنشيط حركة التجارة بين مصر والسودان ، وقد تلاحظ ذلك في مخاطبة محمد على لحكمدار السودان بقوله :

« يجرى شراء ما يوجد من أصناف الصمغ وسن الفيل وريش النعام على حساب الميرى ، وتدفع أثمانها المستحقة من خزينة سنار » (٢١) .

ولقد أدى اهتمام محمد على بتنشيط حركة التجارة بين مصر والسودان الى زيادة حجمها ، وخاصة بعد أن استتب الأمن في السودان ، وبالتالي عاد هذا بالرضاء على مواطني القطرين الشقيقتين .

وكانت قوافل التجارة السودانية القادمة الى مصر تسلك عدة طرق: لكي تصل الى مصر ، وهذه الطرق كانت على النحو التالي :

طريق النيل — كرسكو ، الذي يمر عبر صحراء أبو حمد ، وطريق سواكن — بربر ، ، وطريق مصوع — كسلا — كيرن . وكان لكل من هذه الطرق مميزاته وعيوبه ، فقد تميز الطريق الأول بوفرة مياهه على مدار السنة، وذلك لمروره بجوار النهر ، بينما تمثلت عيوبه في طول مسافته التي بلغت حوالى ١٧٥٠ كم تقريبا ، وتميز الثاني بقصر مسافته التي بلغت حوالى ٢٣٠ كم ولكن كان يعيبه نقص المياه فيه . وتميز الثالث بقصر مسافته التي بلغت حوالى ٤٥٠ كم وتميز بوفرة مياهه أيضا ، وتميز الطريق الرابع بقصر مسافته أيضا والتي بلغت حوالى ٦٥٠ كم ووفرة مياهه .

والى جانب هذه الطرق وجد هناك أربع طرق أخرى تربط الخرطوم ببعض البلدان السودانية وهذه الطرق هي :

- طريق الخرطوم — دارفور .
- طريق الخرطوم — كردفان .
- طريق الخرطوم سنار .

(٢١) دفتر رقم ٢٠ معية تركى ، وثيقة ٣٦ في ٢٨ شوال سنة ١٢٤٠ الموافق ١٨٢٤ م

— طريق الخرطوم — المنطقة الاستوائية (٢٢) .

لم تستخدم القوافل التجارية القادمة من السودان الى مصر جميع هذه الطرق ولكنها استخدمت فقط طريقين هما : طريق النيل وطريق غرب السودان ، فبالنسبة للطريق الأول ، كانت البضائع التجارية تمر فيه ابتداءا من الخرطوم بواسطة المراكب التي تسع الواحدة منها ٤٠ طن وحتى ابو حمد ، ومنها تنقل على ظهور الجمال عبر صحراء العتومور الى كرسكو ، ومنها بالمراكب الى قرية الشلال الاول الواقعة جنوب حلفا (بالقرب من قرية فيلة) ولكن في حالة ما تكون مياه النهر مرتفعة ، ففي هذه الحالة يمكن للمراكب مواصلة المسير حتى اسوان مباشرة ، واما اذا كانت مياه النهر منخفضة ففي هذه الحالة يصير تفريغ البضائع في قرية الشلال ، ومنها تنقل على ظهور الجمال الى اسوان ، ومن الاخرة بالمراكب الى المحروسة (٢٣) .

واما بالنسبة لطريق غرب السودان ، فكانت البضائع تنقل من خلاله ابتداء من دارفور وكردفان على ظهور الجمال الى بلدتي الدبه وهندك ، ومنها يصير شحن البضائع مرة اخرى في المراكب الى قرية الحفير الواقعة عند الشلال الثالث ومن هذه القرية يصير تحميل البضائع مرة اخرى ، على ظهور الجمال ، حتى وادي حلفا ، ومنها بالمراكب عبر النيل الى اسوان في حالة ما تكون مياه النهر مرتفعة تماما ، اما اذا كانت المياه منخفضة ، ففي هذه الحالة تنقل على ظهور الجمال الى اسوان ومنها بالمراكب الى القاهرة (٢٤) .

وقد قسمت هذه الدراسة الى ثلاثة ابواب على النحو التالي : —

أولا — الباب الأول :

يتضمن حجم الوجود المصرى في افريقيا في القرن التاسع عشر في الفترة ما بين ١٨٢٠ ، ١٨٦٣ ، فكان محمد على قد قرر منذ ان دخلت قوائمه السودان ،

Report on the Egyptian province of the Sudan Red Sea (٢٢) and Equator. P.P. 155-156.

Ibid. P. 150.

(٢٣).

(٢٤) تقرير المسيو فولر والخاص بسكة حديد السودان عام ١٨٧١ م .

ان تظل عند الحدود التي وصلت اليها ، ولم يسمح لها بتخطيها والاستيلاء على بلاد جديدة . ويمكن تعليل ذلك بأن ظروفه وامكانياته لم تساعده على ذلك ، ويتضح ذلك من قوله الى البك الدفتردار ما نصه :

« كذلك كتبنا الى ولدنا ابراهيم باشا والى جده قائلين له ، انه ورد على خاطرنا ان ادارة جهات في هذه الدرجة من السعة سوف يكون امرا عسيرا ، متى نظرنا الى مقدار ما فيها من جنودنا ، وعلى ذلك يتراءى لنا لو اقتصرنا في الوقت الحاضر على اقاليم الحلفاية وسنار ونازوغلى واكتنينا مؤقتا بالاتامة في كردفان ، لكان هذا اكثر تمثيا واتفاقا مع مصلحتنا ، فان لزم الذهاب الى دارفور ، بعد مرور مدة من الزمن فعندئذ يتخذ ما تقتضيه الحاجة من الاهمية والاستعداد او فدنائه (اى ابراهيم) الى تلك الاقطار بصفة ناظرا ، واوصيناه ان ياتى الينا بعد وضع الامور في نصابها ، تلك الامور التي تعد تسويتها امرا خطيرا عظيم الاهمية » (٢٥) .

وبعد ان زار ابراهيم باشا السودان ، ووقف على حقيقة الامور هناك كتب الى والده الباشا خطابا قال فيه : —

« سيدى ان ماورد على خاطرك فهو الاصابة بعينها ، وانه هو الموافق لمصلحتنا » (٢٦) .

ويمكن تعليل عدم موافقة محمد على ، على زحف قواته في داخلية الاقاليم السودانية واستيلائها على مناطق اخرى جديدة الى عدة عوامل منها ، اشتراك بقية قواته في حروب كريت والمورة (٢٧) ويؤكد ذلك ما ذكره الاستاذ عبدالرحمن

(٢٥) محفظة ٣ معية سنية ، وثيقة ٢٣ في ٣ صفر سنة ١٢٢٧ الموافق

١٨٢١ م

(٢٦) نفس المصدر .

(٢٧) عندما نشبت الثورة في جزيرة كريت عام ١٨٢١ عهد السلطان محمود ، الى محمد على باخمادها فاعد الاخير حملة مكونة من ٥٠٠٠ خمسة آلاف جندى ، تحت قيادة حسن باشا ، وقد نزل هؤلاء الجنود المصريين على شاطئ كريت في يونيو عام ١٨٢٢ ، واستمروا في محاربة المتمردين حتى عام

الرافعى فى كتابه (عصر محمد على) والذى جاء فيه ما نصه :

« ولما استفحل أمر السفن اليونانية فى البحر أرسل السلطان محمود عام ١٨٢١ م الى محمد على يعهد اليه بتطهير البحر من قرصنة هذه السفن » (٢٨) وربما أن محمد على رأى أن تظل قواته فى السودان فى الأماكن التى تم الاستيلاء عليها حتى تستقل ما فيها من موارد اقتصادية لصالح القطرين (مصر والسودان) بالإضافة الى أن قواته كان يمكنها أن تسترد قواها وتعيد تنظيم صفوفها وتستكمل ما ينقصها من أسلحة ومهمات وعتاد وأفراد .

وبعد أن انتهى محمد على حروبه الخارجية أمر فى عام ١٨٣٩ قواته الموجودة بالأقاليم السودانية بالتحرك صوب الجنوب ، وذلك لمحاولة الكشف عن منابع النيل ، وضم المنطقة الاستوائية الى السيادة المصرية ، ولم يقتصر تحرك هذه القوات على الجنوب فقط بل أنها تحركت صوب الشرق عام ١٨٤٣ واستولت على القلابات والقضارف وAntaka . وأضيف فى عام ١٨٤٥ الى هذه الأقاليم كل من مينائى سواكن ومصوع (٢٩) بعد أن تنازل عنها السلطان العثمانى ل محمد على .

وبذلك اصبح حجم الوجود المصرى فى أفريقيا فى عصر محمد على يضم كل من إقليم كردفان فى الغرب وفازرغلى وسنار فى الجنوب ، والقضارف والقلابات وAntaka فى الشرق ، بالإضافة الى مينائى سواكن ومصوع .

= ١٨٢٢ ، ولما استفحلت الثورة فى المورة حتى عام ١٨٢٣ وشعر السلطان العثمانى بمجزه فى أحمادها ، اشرك محمد على فى هذه الحرب ، ليحقق بذلك غرضين ، اولهما الاستعانة بالجيش المصرى فى اخلاء ثورة المورة ، والثانى صرف محمد على عن المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة ثوته ، واصدر اليه مرمانا يخول له ولاية الموره ، وقد تكونت هذه الحملة من ١٧٠٠٠ سبعة عشر الفا من المشاه ، ٤ بلوكات من المدفعية ، ٧٠٠ من الخيالة ، وبلغ عدد سفن الحملة ٥١ سفينة حربية ، ١٤٦ سفينة نقل ، وقد اقلعت الحملة من الاسكندرية فى شهر يوليو عام ١٨٢٤م . انظر كتاب عبد الرحمن الرافعى « عصر محمد على من ص ٢١٢ — ٢١٦ » .

(٢٨) نفس المصدر ص ٢١٢ .

(٢٩) محفظة ١١١ . سواحل البحر الأحمر وثيقة بدون تاريخ .

وقد قسمت الباب الأول أيضا الى ستة فصول تناولت في الأول منها موضوع الثروة البشرية والرق في السودان في عصر محمد على ، وتحدثت فيه أيضا عن مدى حاجة محمد على الى السود ، وكيفية الحصول عليهم ، سواء اكان ذلك بطريقة الصيد أم الشراء ، وتحدثت أيضا عن طريقة نقل العبيد وكذلك عن كيفية استخداماتهم ، واخيرا تكلمت عن موقف محمد على من تجارة الرق في أفريقيا .

وتناولت في الفصل الثاني من هذا الباب موضوع الثروة الحيوانية، ومدى حاجة محمد على اليها ، وتحدثت فيه أيضا عن طريقة الحصول عليها سواء اكان ذلك عن طريق الشراء أم عن طريق الحصول عليها كضرائب مصرية ، ثم تناولت مراحل وصولها الى مصر ، وكذلك تحدثت عن استخداماتها ، واخيرا تكلمت عن الجلود والصوف والعاج .

وتناولت في الفصل الثالث موضوع المعادن ، فتحدثت عن كيفية التنقيب والحصول عليها ، وكذلك تحدثت عن الوسائل التي استخدمت في التنقيب عن معدن الحديد والذهب ، سواء اكان ذلك في جبال كردفان أم دارفور ، أم في اقليم سنار ، أم في جبال فازوغلى ، كما تكلمت أيضا عن المدينة التي انشأها محمد على في منطقة فازوغلى ، التي عرفت باسمه وكان الفرض من انشائها هو سكنى عمال المناجم .

وتناولت كذلك في الفصل الرابع الزراعة والغلات الزراعية في السودان ، فتحدثت عن كيفية النهوض بها ، سواء اكان ذلك عن طريق ارسال عدد من كبار عمال الزراعة في مصر الى السودان ، أم عن طريق ارسال بذور غلات زراعية لزراعتها في السودان ، مثل الأرز والقصب ، كما تكلمت عن بعض الغلات التي جلبها محمد على من السودان ، الى مصر ، مثل بذرة القطن والصمغ والسنامكي والنيلة ، والأبنوس والخشب والأقمشة .

وتناولت أيضا في الفصل الخامس التقدم الحضارى في السودان الذى تم في عهد محمد على باشا ، سواء اكان ذلك في مجال التنظيم الادارى ، الذى أدخل الى السودان لأول مرة والأمن والعمارة ، وحفر الآبار ، والكشف عن منابع النيل .

وتناولت في الفصل السادس من هذا الباب ، عصر عباس الأول ومحمد سعيد باشا، ودور كل منهما في أفريقيا ، فمع أن دورهما لم يكن فيه أية إضافة الى الوجود المصرى في أفريقيا في هذه الفترة فقد كان لكل منهما بعض الأعمال البارزة ، فنجد مثلا عباس الأول كان يهتم بنشر التعليم في السودان ، ويتضح ذلك من انشائه لمدرسة الخرطوم التى كانت تعتبر أول مدرسة من نوعها تنشأ في بلاد السودان ، فقد تقرر انشاؤها منذ عام ١٨٤٩م ونجد أيضا أن محمدا سعيدا باشا قد أصدر عدة قرارات ، كان منها ما هو خاص بتخفيف اعباء الضرائب عن كاهل السكان ، وكان منها ما هو خاص بالعمل على وقف تجارة الرقيق في السودان ، ولكن يبدو أن هذه الاجراءات لم تحقق الغرض المرجو منها ، وذلك فيما يبدو بسبب قصر مدة حكم سعيد باشا .

ثانيا - الباب الثانى :

ويتضمن حجم الوجود المصرى في أفريقيا في الفترة ما بين ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ، وقد اشتمل الوجود المصرى في هذه الفترة على كل بلاد السودان بما في ذلك دارفور ، ومديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية والسواحل الغربية للبحر الأحمر ولكن اسماعيل لم يكتف بكل هذه المساحات بل حاول من جانبه أن يمد نفوذه الى شرق أفريقيا ، ولكن بريطانيا لم تمكنه من تحقيق ذلك ، فاضطر الى سحب قواته الى رأس حانون ، واكتفى بالمنطقة الواقعة الى الجنوب من خليج عدن أو (الصومال الشمالى) .

وقد تسمت هذا الباب الى سبعة فصول ، الأول منها ويحمل رقم الفصل السابع والذى تناولت فيه موضوع الثروة البشرية والغاء الرق ، فقد تحدثت عن دور مصر في مقاومة تجارة الرق بكافة السبل المتاحة ، وتحدثت أيضا عن كيفية استخدام السبيد وعن كيفية الحصول عليهم ، كما تحدثت عن معاهدة الرق المبرمة بين مصر وبريطانيا العظمى في عام ١٨٧٧ م .

وتناولت في الفصل الثامن من هذا الباب ، الزراعة والغللات الزراعية ، وأوضحت اهتمام مصر على وجه الخصوص بزراعة القطن وكذلك الذرة والبن والخضر وأشجار الفاكهة التى كان الجنود المصريون يقومون بزراعتها في بادئ الأمر أمام معسكراتهم ، ثم انتشرت زراعتها فيما بعد في بعض البلدان الأفريقية ، مثل دنقلة وبربر ووبريرة وسواكن ومصوع .

وتناولت كذلك في الفصل التاسع موضوع السكة الحديد السودانية ، فتحدثت عن أهمية إنشاء سكة حديد السودان وتحدثت عن البعثات التي أرسلتها مصر الى السودان ، لكشف المناطق والطرق التي يصلح مد السكة الحديد من خلالها ، زيادة على ذلك فاننى تحدثت عن بناء المحطات وشراء المهمات والمعدات ، واقامة الجسور ، تكلمت ايضا عن خطوط التلفراف والبريد ، الذين انتشروا على نطاق واسع في معظم البلدان السودانية والافريقية

وتناولت ايضا في الفصل العاشر ، علاقة مصر بالحشة قبل المعارك الحربية التي دارت رحاها بين الدولتين ثم تحدثت بعد ذلك عن تطور العلاقات السلمية فيما بعد الحرب ، ونشرت عددا من الخرائط العسكرية والتقارير الهامة الخاصة بهذه المعارك .

وتناولت في الفصل الحادى عشر علاقة مصر بالثوى الأجنبية وبصفة خاصة علاقاتها مع بريطانيا واطاليا وفرنسا ، وأوضحت مدى ما وصلت اليه هذه العلاقات من مساوئ بين مصر وبين غيرها من هذه الدول ، نتيجة استيلاء هذه الدول على أملاك مصر في أفريقيا الشرقية .

وتناولت في الفصل الثانى عشر ، الكشوف الجغرافية المصرية في افريقيا ، سواء اكانت في غرب وشرق السودان ، أو في مصرية بحر الفزال ام في المديرية الاستوائية ، ام في أفريقيا الشرقية ، فقد أعدت مصر عددا كبيرا من البعثات الكشفية التي ترأسها عدد من الضباط المصريين والأجانب مثل الكولونيل كولستون وبردى وبروت وأرنست لينان دى بلفون ، وماكيلوب والدكتور شوينفرت وشايولونج ، وكان من الضباط المصريين الذين اشتركوا في هذه البعثات الكشفية اللواء محمد رؤف باشا والقائم ام محمد نادى ، ومحمد مختار وابراهيم فوزى والضابط أحمد حمدى وغيرهم كثيرون .

وتناولت في الفصل الثالث عشر نظام الحكم المصرى في السودان ، وفي بعض البلدان الافريقية الأخرى ، سواء اكان ذلك في مجال التنظيم والإدارة ، أم في مجال الامن ، والتعليم والصحة والقضاء وتعتبر هذه الأنظمة جديدة بالنسبة للبلاد الافريقية ، التي لم تشهد شعوبها من قبل نظما مثل هذه الأنظمة المتقدمة .

خاتمة - الباب الثالث :

ويتضمن حجم الوجود المصرى فى الفترة ما بين ١٨٧٩ - ١٨٩٩ ،
عمن المعروف أن حجم الوجود المصرى فى أفريقيا فى هذه الفترة ظل كما
هو وخاصة بعد اقالة اسماعيل وحتى عام ١٨٨١ م الذى أندلعت فيه الثورة
المهدية فى السودان ، وتعتبر هذه الثورة بداية النهاية للوجود المصرى فى
السودان خاصة وأفريقيا عامة ، فمنذ بدأت هذه الثورة بدأ الوجود المصرى
معها فى التناقص فى كل من السودان وأفريقيا الشرقية ويرجع ذلك الى ضعف
القوات المسلحة المصرية ، وخاصة بعد خوضها عدة حروب ضد القوات
الخصائية ، كما يرجع أيضا الى الأحداث الداخلية فى مصر ، وما أعقبها من
تدخل بريطانى سافر فى كافة شئونها الداخلية والخارجية .

وأدى الأمر ببريطانيا الى أن تطلب من مصر ضرورة إخلاء السودان
وأفريقيا الشرقية بحجة أن القوات المصرية غير قادرة على مجابهة قوات
الذراويش ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن هذه البلاد لا تعود على مصر
بالتفيع ، بقدر ما تعود على خزانتها بالخسارة والأضرار .

وما أن حل عام ١٨٨٥م حتى كانت مصر قد أجبرت على الانسحاب من جميع
أقاليمها فى أفريقيا ولم يبق لها الا سواكن على البحر الأحمر وحلفا فى جنوب
مصر ، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٨٩٦ ، ففى هذا العام قررت مصر
ومعها بريطانيا استعادة السودان ، وخاصة بعد أن تم لبريطانيا احتلال
مصر ، وبعد أن تم لها التدخل الكامل فى كافة شئونها .

وفى عام ١٨٩٦ م بدأ زحف القوات المصرية الكثرية العدد ومعها القلة
القليلة من القوات البريطانية وذلك لاستعادة السودان وقد تمكنت هذه -
القوات من تحقيق أهدافها كاملة وتمكنت من القضاء نهائيا عام ١٨٩٩ م على
نفوذ المهديين وعندئذ حكم السودان حكما ثنائيا أى بين مصر وبريطانيا وبهذا
الاسترداد أو الفتح الثانى للسودان أصبح حجم الوجود المصرى فى أفريقيا
قاصرا على السودان فقط .

ولقد قسمت الباب الثالث الى خمسة فصول الأول منه يحمل رقم
الفصل الرابع عشر ، وتناولت فيه الثروة البشرية والرق وحاولت أن أبرز
فيه دور مصر فى مقاومة تجارة الرقيق ، والخطوات التى اتخذتها من أجل ذلك .

وتناولت في الفصل الخامس عشر موضوع سكة حديد السودان والذوائع التي دفعت مصر الى مواصلة العمل في انجازها سواء اكان ذلك من اسوان الى الخرطوم أم من سواكن الى بربر وتحدثت أيضا في هذا الفصل عن تطوير مراحل العمل في مد هذه السكة الحديدية .

وتناولت في الفصل السادس عشر علاقة مصر ببعض الدول الأوربية مثل بريطانيا التي كانت في هذا الوقت صاحبة اليد الطولى والنفوذ المطلق في مصر ، عن غيرها من الدول الأوربية الأخرى .

وتناولت في الفصل السابع عشر نظام الحكم المصرى في السودان سواء اكان ذلك في مجال التنظيم والإدارة أم القضاء أم في مجال التشريعات الدستورية والأمن والصحة والتعليم .

وأود ان أكون قد وفقت في تحقيق الجديد وإضافة مادة جديدة وأصيلة تساعد على فهم هذا الدور الحضارى الكبير الذى قام به أجدادنا في القارة الأفريقية .

ورغم ان مجهودى لايمثل الابنة صغيرة في ميدان المعارف التاريخية ، فاننى أرجو أن يكون هذا البحث إضافة جديدة للأبحاث وللمكتبة العربية .

واننى لأنتهز هذه الفرصة كى أتقدم بجزيل الشكر والتقدير الى السيد الأستاذ الدكتور / جلال الدين مصطفى يحيى ، الذى كان لرايه الصائب وتوجيهاته العلمية السديدة أكبر الأثر في انجاز هذه الدراسة ، كما أشكر السيد الدكتور طلعت أبو العزم على تعاونه معى . وكذلك أشكر الاستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى والاستاذ الدكتور عمر عبد العزيز .

والله ولى التوفيق

دكتور

(السيد يوسف نصر)